الدرس الثاني: فنيات كتابة قصة قصيرة

تجربة الكتابة السردية الخيالية

تمهيد

تعدّ القصة القصيرة من أهم الفنون السردية الحديثة التي تجمع بين الإيجاز والتركيز والقدرة على التعبير الوجداني والإنساني، ويهدف هذا الدرس إلى تعريف الطلبة بأنواع القصة وتطور القصة القصيرة في الأدب العربي والجزائري، ثم تدريبهم على التحليل والكتابة والسرد الشفهي.

1. تعريف القصــة

هي قالب تعبيري يعتمد فيه الكاتب على سرد أحداث معينة تجري بين شخصية وأخرى أو شخصيات متعددة، يستند في قصها وسردها على الوصف مع عنصر التشويق حتى يصل بالقارئ أو السامع إلى نطقة معينة تتأزم فيها الأحداث وتسمى" العقدة"، ويتطلع المرء معها إلى الحل حتى يأتي في النهاية، ويرى بعض النقاد أن العقدة والحل غير لازمين لفن القصة[1].

وهي أيضا :فن من الفنون الأدبية القديمة، إذ لا أظن أن ثمة مجتمعا بشريا، قديما أو حديثا، يمكن أن يخلو من هذا الفن، فحب القصص نزعة فطرية في النفس الإنسانية، ولعل أقدم كتابة نقدية في هذا الموضوع هي ما كتبه أرسطو في كتابه (فن الشعر) عند كلامه عن الملحمة والمسرحية، ذلك أن الملحمة والمسرحية كلتاهما فن قصصي، كل ما في الأمر أن الملحمة كانت تنظم شعرا، وأن المسرحية تقوم على الحوار، فلا سرد فيها إلا في أضيق نطاق، وذلك حين يضع المؤلف ملاحظاته السريعة الموجزة قبل بعض المشاهد كي يهتدي بها المخرج لدن تحويلها من عمل مكتوب إلى تمثيل حي على المسرح، فضلا عن أن المسرحية، كانت تكتب أيام أرسطو شعرا، وإن كتبت بعد ذلك نثرا أيضا[2].

2. أنواع القصــة

1.2 الحكايــة

تحكي واقعة من "الوقائع الحقيقية أو الخيالية –الأسطورية أو الخرافية– دون التزام بقواعد الفن القصصي، ويمكن أن تمثل لها بالنوادر والحكايات التي ترويها كتب الأدب **مثل "الأغاني"**،

و"**البيان والتبيين**"، و"**زهر الآداب ... "وغيرها**، وفي أدبنا العربي كتب كاملة تحوي هذا الفن مثل "**كلية ودمنة** "**لابن المقفع**، و"**البخلاء** "**للجاحظ**، و"**ألف ليلة وليلة** .."**وغيرها**.[3]

2.2 الأقصوصـــة

قصة قصيرة تصور جانبا من الحياة، يحلل فيها الكاتب جانبا من جوانب الفن القصصي، كالحدث أو الشخصية، وقد لا يعنى فيها بالتفاصيل، ولا يلتزم ببداية ونهاية ... وقد تدور حول مشهد، أو حالة نفسية، أو لمحة محددة، ويمكن –لقصرها– أن تقرأ في جلسة واحدة خلال فترة قصيرة، ومن أمثلتها قصص "**كل عام وأنتم بخير** "**لمحمود تيمور**، و"**هل** "**لمحمد جبريل**، و"**الزمردة الخضراء** "**لعبد الله باقازي**، و"**الناس والعيب** "**لعنتر مخيمر**، و"**وجوه وأحلام** "**لأحمد زلط**"، و"**عسل الشمس** "**لفؤاد قنديل**، و"**رشق السكين**" **لمحمد المخزنجي**[4].

3.2 القصة القصيـــــــرة

وهي وسط بين الأقصوصة والرواية، إذ تعالج فيها جوانب أوسع وأحداث أرحب من أحداث سابقتها، ويشترط فيها من الناحية الفنية أن تحتوي على التمهيد للأحداث والعقدة التي تتشابك عندها وتشوق القارئ للحل، ثم الحل الذي يأتي في النهاية، فيستريح معه القارئ ، ومن القصاصين العرب الذين أبدعوا في فن القصة :**محمود تيمور، وإبراهيم المصري، ويحيى حقي، ونجيب محفوظ، ومحمد جبريل**.. وغيرهم.[5]

4.2 الروايـــــــة

هي أوسع من القصة في أحداثها، وشخصياتها، عدا أنها تشغل حيزا أكبر، وزمنا أطول، وتتعدد مضامينها كما هي في القصة، فيكون منها الروايات العاطفية والفلسفية والنفسية والاجتماعية والتاريخية، ومن كتابها :**نجيب محفوظ، ومحمد عبد الحليم عبد الله، وثروت أباظة، وفتحي غانم، وطه وادي، ونجيب الكيلاني، ومحمد جبريل، ومحمد عبده يماني، والطيب الصالح،، وحنا مينه، وعبد الله الجفري.. وغيرهم**[6].

3. نشأة القــصة

تعدّ القصّة عند العرب فنّا ضاربا في عمق التاريخ، فقد حملت الأمثال العربية في جوهرها قصصًا موجزة محكمة البناء، كما زخرت المدوّنات القديمة بحكايات الأيام والوقائع وبطولات الفرسان، وإذا أمعنّا النظر في جذور السرد العربي وجدنا في قصص القرآن الكريم أرقى نماذج البناء الحكائي، بما فيه من تصوير، وتشويق، وتنوّع في الأحداث والشخصيات، وقد عرف العرب في الجاهلية ألوانا من الأساطير والخرافات التي صاغت مخيالهم الجمعي، وروت سيرا تمجّد الشجاعة والمغامرة، غير أنّ القصة العربية في صورتها الفنية الحديثة، لم تتبلور إلا في العصر الحديث، حين أخذ الأدباء يستلهمون التراث، وينفتحون في الوقت نفسه على التجارب السردية العالمية، ليؤسّسوا لفنّ قصصي جديد يجمع بين الأصالة والتجديد [7].

1.3تطور القصة في الادب العربي القديم

شهدت القصة في الأدب العربي القديم مراحل متعددة من التطور، بدأت بالقصة الشعبية التي كانت تُروى شفاهة في العصر الجاهلي بهدف الترفيه والمتعة، وكان العرب يتناقلونها لما وجدوه فيها من تصوير لأخبار الأسلاف والملوك والفرسان. ثم تطورت القصة النثرية إلى قصة شعرية يقدّم فيها الشاعر حكاية كاملة في أبيات موزونة، يزينها بالصور والخيال، وإن كانت تفتقر إلى العناصر الفنية الكاملة للقصة الحديثة. وقد مثّلت قصص القرآن الكريم محطة بارزة في التاريخ السردي العربي، لما حملته من قيم إنسانية وتربوية وعبر أخلاقية عميقة، ومع مرور الزمن، ظهرت أنواع من القصص ذات أغراض سياسية ودينية، حيث استعان الملوك بالقصاصين لنشر الأخبار وتوجيه الناس، ولجأ بعض الوعاظ والفقهاء إلى القصة لتحريك القلوب وبث الحماس وتهذيب السلوك.

2.3 تطور القصة في الأدب العربي الحديث

بدأت القصة العربية الحديثة بتأثير مباشر من الغرب، سواء عبر الترجمة أو الاطلاع على النصوص الأصلية للأدب الأوروبي، وقد شرع المؤلفون العرب في نقل بعض القصص القصيرة ونشرها في المجلات والصحف العربية، مما مهد لظهور القصة العربية الحديثة في شكلها الفني.

مرّت القصة الحديثة في نشأتها بمرحلتين أساسيتين :مرحلة الترجمة ومرحلة الإبداع والتأليف.

أ/ مرحلة الترجمة

كانت البداية من خلال الصحافة التي وفّرت وسيلة لنقل القصص الغربية إلى القارئ العربي. في البداية، كانت القصص المترجمة لا تحوي عناصر القصة الفنية بالكامل، إذ ركز المترجمون مثل رفاعة الطهطاوي على اللغة والأسلوب، فأدخلوا تعديلات على الأسماء والأحداث وأضافوا الحكم والأمثال العربية، فكانت الترجمة بمثابة "تمصير" للقصة الغربية. لاحقًا، ومع ارتفاع المستوى الثقافي ووعي القراء، دخل المترجمون الجامعيون مثل طه حسين، عبد الرحمن بدوي، ومحمد عويض، فصارت الترجمة أكثر دقة وأمانة للأصل.

ب/ مرحلة الاقتباس

ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر، حيث اقتبس الأدباء عناصر من التراث العربي القديم، مثل فن المقامة، لتوظيفها في أهداف إصلاحية، كما اقتبس آخرون من الأدب الغربي، إما عن طريق التعريب أو الترجمة الدقيقة .وقد أنتجت هذه المرحلة كمًّا كبيرًا من النماذج القصصية المقتبسة، سواء في شكلها المعرب أو المترجم، بينما بدأت المحاولات القديمة لتطوير أشكال القصة العربية القديمة بالاختفاء.

ج/ مرحلة الإبداع

شهدت هذه المرحلة انتقال الأدباء من الاقتباس والترجمة إلى الكتابة والتأليف الأصلي، لتلبية احتياجات المجتمع ومواجهة تأثير الاستعمار الغربي. بدأ الأدباء في تأليف أنواع جديدة من القصة والرواية، خاصة الرواية التاريخية، مع الاحتفاظ ببعض التأثير الغربي في الأسلوب التاريخي، لتكون مرحلة الإبداع تتويجًا للمعرفة والخبرة المكتسبة في المرحلتين السابقتين.[8]

4. تطور القصة في الجزائر

1. الجذور التاريخية

تأثرت القصة الجزائرية بالتراث العربي والإسلامي، وبالحكايات الشعبية والأساطير المحلية، حيث كانت القصص الشعبية تُروى شفاهة في الأرياف والحواضر بهدف التسلية ونقل القيم والتجارب الحياتية للأجيال، ومن أبرز الأمثلة على ذلك حكايات التراث الأمازيغي والعربي في الجزائر، إضافة إلى قصص الأبطال المحليين والأساطير الشعبية التي جسدت الشجاعة والحكمة والخيال الجمعي للمجتمع الجزائري.

أ/ مرحلة التأثر بالأدب الغربي (القرن 19 – أوائل القرن 20)

مع احتلال الجزائر من قبل الاستعمار الفرنسي، ظهرت حركة الترجمة والاطلاع على الأدب الغربي كوسيلة للتعلم والابتكار، حيث شرع عدد من الأدباء في نقل القصص القصيرة الأوروبية ونشرها في الصحف والمجلات الجزائرية. ولم تقتصر هذه العملية على النقل الحرفي فحسب، بل تمت الاستفادة من الأساليب الغربية مع الحفاظ على الخصوصية المحلية للقصة الجزائرية، ما أتاح لها الانطلاق نحو آفاق جديدة من الإبداع والتجديد.

ب/ مرحلة القصة الوطنية والثورية

ارتبطت القصة في الجزائر ارتباطًا وثيقًا بمقاومة الاستعمار وإحياء الهوية الوطنية، حيث سعت إلى نقل المعاناة الوطنية وتجسيد قيم الشجاعة والصمود لدى الشعب الجزائري. وقد برز عدد من الأدباء الذين لعبوا دورا بارزا في هذا المجال، منهم **عبد الحميد بن هدوقة** الذي صوّر الحياة اليومية للمواطن الجزائري تحت نير الاستعمار، و**مالك حداد** و**إدريس شراف** اللذان أوليا اهتمامًا خاصا بالقيم الوطنية والاجتماعية، ما جعل القصة أداة فنية للتعبير عن روح الأمة وتطلعاتها نحو الحرية والكرامة.

ت/ مرحلة النضج الفني .

شهدت الجزائر ظهور القصة الفنية المتكاملة، متأثرة بالمدرسة الواقعية الحديثة وأساليب الرمزية، لتصبح القصّة وسيلة فنية متقدمة تعالج قضايا الهوية والصراع والتاريخ الاجتماعي، وقد برز في هذه المرحلة عدد من الأدباء الذين جسّدوا هذه القيم في أعمالهم، مثل **عبد الحميد بن**

هدوقة من خلال روايتيه نهاية رجل قديم وريح الجنوب، و**رابح خدوسي** الذي تناول القضايا الاجتماعية والسياسية، ما أكسب القصة الجزائرية بعدا فنيا عميقا يعكس واقع المجتمع وأبعاده الإنسانية.

ث/ مرحلة التجريب والتحديث

شهدت القصة الجزائرية في المرحلة الحديثة مزجا بين الواقعي والخيالي، مع بروز فن القصة القصيرة جدا أو القصة الومضة، ما أتاح للكتاب التعبير المكثف عن الأفكار والمشاعر، وقد تم توظيف تقنيات حديثة في السرد مثل الفلاش باك (الاسترجاع)، والاستباق، والتنويع في البدايات والنهايات، لتعزيز التشويق وثراء الأحداث، كما أولى الأدباء اهتماما بالقضايا الجوهرية للمجتمع الجزائري، مثل الهوية الوطنية، وحقوق المرأة، والتغيرات الاجتماعية، وظاهرة الإرهاب، ومن أبرز من تألقوا في هذه المرحلة **زكريا تامر** بأسلوبه الرمزي والسخرية السوداء، و**نورا بوقرة**، و**مالك حداد** ... ما منح القصة الجزائرية أفقا جديدا من الإبداع والتجديد.

ج/ السمات العامة للقصة الجزائرية الحديثة

- الاهتمام بالجانب الوطني والاجتماعي والسياسي.
- مزج بين التراث العربي والأمازيغي والأساليب الغربية.
- تنويع في الأسلوب: الواقعية، الرمزية، الفانتازيا، التجريب.
- التركيز على الحدث الواحد والشخصيات المحدودة كما في القصة القصيرة الفنية.

5. أشكال اسرد القصصي

1.5 المقال القصصي

ونجده عن المنفلوطي في "النظرات "وأحمد حسن الزيات في بعض مقالات "وحي الرسالة "مثل "ضحية من هذا؟" ، و"غني فقير"، و"غراب وطفل.."وغيرها.

2.5 المذكرات اليومية

يمتد الكاتب على تسجيل المذكرات اليومية مؤرخة يوما بعد يوم، ثم يربط بينها لتؤدي مضمونا قصصيا يحمل قضايا يريد توصيلها للقارئ، ومن أمثلة ذلك "يوميات نائب في الأرياف "لتوفيق الحكيم، و"مذكرات الأرقش "لميخائيل نعيمة، و"من أوراق أبي الطيب المتنبي "لمحمد جبريل.

3.5 المقامـــــــــة

قد يفرغ بعض الكتاب المعاصرين قصصهم في شكل المقامة، مثل المويلحي في "حديث عيسي بن هشام"، وعباس الأسواني في "المقامات الأسوانية."

4.5 الرسالـــــــة

قد تكتب القصة في قالب رسالة كما في "ماجدولين "التي عربها المنفلوطي.

5.5 القصـــة الشعريـــــــة

قد تكون في قالب شعري، ومنها قصص شوقي الشعرية للأطفال، وقصص إيليا أبي ماضي الشعرية الرمزية ومنها "الحجر الصغير "و"التينة الحمقاء "وقصص خليل مطران الشعرية.. وغيرها[9].

6. نماذج القصة القصيرة في الأدب العربي

شنذويل يبحث عن عروس" لمحمود تيمور"[10]

كان "شنذويل" جالسا القرفصاء، معتمدا رأسه براحتيه، وقد ملكه تفكير مضطرب حائر، وران على الدار هدوء ثقيل، يشيع فيه هم وقلق ورتوب. وجب أن يحسم شنذويل الأمر على أي نحو يكون، لم يعد طفلا ولا صبيا، إنه شاب مكتمل الشباب، بل إنه بلغ مبلغ الرجولة، وانصرم الوقت وشنذويل لم يغير جلسته، يضرب في متاهة لا يعرف له منها مخرجا. وبغتة ألفى نفسه ينهض، وعلى وجهه يرتسم عزم وتصميم. وأخذ سمته إلى "أم فكرية."

"شندويل" هذا فلاح من قرية "المنشية"، وهي من أعمال "شبين الكوم".. رجل في حاله، لا يعرف العيب ولا يجري لسانه به، مخلص أمين، طيب القلب، لين العريكة، ولكنه معروف بصراحته، لا يداري أحدا. نشأ يتيم الأبوين، لم تكتحل عيناه بمرآهما، فكفله رجل خير، مزارع له أرض تفيء عليه رزقا محدودا، فضمه إلى أسرته: زوجه وبناته الثلاث، وكان "شندويل "يكبرهن بأعوام قلائل، فاختلط بالأسرة كأنه واحد منها، يعمل معهم في خدمة الدار والحقل والماشية.

وبعد سنوات دهم رب الأسرة مرض مفاجئ أودى به في أيام، فكانت فاجعة تجلدت لها الزوجة قدر ما تستطيع، ووقفت حياتها على توفير أسباب العيش لبناتها الثلاث، مع رعاية مرافق الدار والحقل والماشية، يعينها الفتى "شندويل "أحسن العول بما أوتي من قوة بنية، وما طبع عليه من صبر ودأب، وما تميز به من جد ونشاط. وتواصلت الأيام... وكبر الفتى، واشتد عوده، وانتهى إليه عبء الحقل أجمع، فنهض به راضيا بعمله، مرضيا عنه.

مع الصبح يخرج إلى الحقل محبور النفس، يسوق الماشية أمامه، وهو يردد أغانيه، ويتابع العمل في نشوة، يحرث ويعزق ويروي، ويعنى بكل شيء حواليه من زرع وضرع، لا تهدأ له حركة، ولا يشغله عن عمله شاغل، وتراه يستقبل بزوغ النبتة بفرحة غامرة، فيظل يتحسسها ويتشممها كأنها من لحمه ودمه.

وعند الظهيرة تلوح "أم فكرية "وبناتها الثلاث، يحملن صحاف الطعام، فيلقاهن "شندويل "بترحاب، وبعد أن يمسح عرقه بطرف قميصه، يهيئ لهن مكانا ظليلا من كثب من القناة.. وما هي إلا أن يحلق الجميع حول سماط الطعام، مقبلين على الأكل في شهية. وتسأل "أم فكرية:"

ما خطب المحصول؟

فيؤكد لها "شندويل "جودته، ويبشرها بنمائه، ويقسم لها أنها ظافرة منه يوم الحصاد بما يحقق لها وبناتها الثلاث كل ما تطمح نفوسهن إليه.

وربما طاب للأسرة أن تداعب "شندويل "في أثناء الطعام بالنكات اللاذعة ليثور ثائره ويهيج غضبه، بيد أنه لا يزيد على أن يشرق وجهه بابتسامة سمحة.

فإذا أرخى المساء سدوله أوى شندويل إلى ركن في الزريبة، أعده مكانا مختارا له، حتى يكون بمنأى عن حريم الدار، وما أسرع أن يغشاه سبات عميق تتراءى فيه نواعم الأحلام.

على هذا المنوال سارت الأحوال راضية ندية، وترادفت الأيام على الأسرة في طمأنينة وسلام، حتى دب في قلب "شندويل "شعور طارئ لم يكن له عهد به من قبل.

لقد نشأ الفتى، وهو يجد نفسه في مكان الأخ الأكبر للبنات الثلاث، وفي مرتبة الابن لربة الدار، فقنع بهذه العاطفة الحلوة الهادئة المحايدة، يتلقاها ممن حواليه، ويبادلهن إياها في لطف وإيناس، ولكن الطبيعة لا تقر الهدوء والاتزان، ولا تعرف الحياد.. إن لها نزوزاتها، بل قل إن لها قوانينها، وهكذا وجد "شندويل "نفسه على الرغم منه ينظر إلى البنات في ازدهار أنوثتهن نظرة من طراز آخر، نظرة ميل وانعطاف، وراءها مشاعر تتوهج.. أما الرباط الأخوي المحض، فلم يعد له وحده مكان!

وكانت البنات على نمط متشابه من الوسامة، انتقل إليهن من الأم، فكأنهن وإياها نسخ مكررة، إلا فوراق تفرضها السن، وما تتميز به بعضهن من الشمائل والخلال. وقد شاع في المنطقة نبأ أولئك الصبايا الملاح، وطار صيتهن في المناطق المجاورة، وتهادت الألسن حديثهن المستطاب.. فأما الكبرى فكانت أثيرة عند "شندويل "فأزمع أن يخطبها، وأفصح "لأم فكرية "عن عزمه فطأطأت رأسها في صمت، وقد تناولت عودا يابسا تنكب به الأرض حيالها، فلما طال صمتها، أعاد "شندويل "الإفصاح عما طلب، وقد حسب أنها لم تسمع حديثه، ولم تدر فحواه، فرفعت رأسها، وكست محياها طابع جد، فقلق "شندويل "أشد القلق...

وبعد هنيهة، قالت "أم فكرية:"

–أأجد لابنتي أعز منك؟ أنت ابن البيت.. كلك خير وبركة، ولكن سبقك غيرك يا "شندويل؟

–من تعنين يا خالة؟

–المشرف يا "شندويل .."المشرف الزراعي طلبها منذ أيام.. وعرض مهرا قدره مئة جنيه.

فغمغم "شندويل "وقد زاغت عيناه:

-مئة جنيه؟

-وعنده جنينة برتقال يربح منها الذهب!

وانجر "شندويل "إلى الزريبة، مثقل الخطا، يكاد يتعثر، وتوخى ركنه المختار، متهالكا على الفراش يدفن فيه وجهه، ويسلم نفسه للأنين والانتحاب.

وتم الزواج.. وانتقلت إلى دار المشرف الزراعي كبرى البنات في مهرجان من الأغاريد والأضواء ينفح منه أريج البرتقال!

ولم يجد "شندويل "مفرا من قبول الأمر الواقع، فشارك القوم فرحتهم، وألفى نفسه ينهض بواجبه نحو حفل الزفاف على أكمل وجه في صدق وإخلاص.

وعادت الحياة إلى سابق مساقها.

وعاد "شندويل "إلى عمله في الحقل يجد ويكد.. ولم يتغير من نظام الأسرة شيء إلا أن عددها قد نقص فردا.

وأحس "شندويل بقلبه على مر الوقت يخفق حبا للابنة الوسطى، وقد اكتملت نضجا ونضارة، فتملكته فكرة الزواج بها، واختفت خيبته التي واجهته في التجربة الأولى، واختفى معها كل تدبر وموازنة ومنطق، فتقدم في براءة وبساطة إلى" أم فكرية "يخطب وسطى البنات.. فطأطأت رأسها في صمت، وتناولت عودا يابسا تنكت به الأرض حيالها ولم تلبث أن همهمت:

-أأجد لابنتي أعز منك يا "شندويل"؟ أنت ابن البيت.. كلك خير

وبركة، ولكن..

-ماذا يا خالة؟

-وكيل الجمعية طلبها، وعرض شبكة ثمينة.. سوارا مرصعا بالجوهر!

ومضغ "شندويل "كلماته يردد:

–سوارا مرصعا بالجوهر؟! وانجر إلى مكانه من الزريبة، ودفن في الحشية وجهه وانخرط في بكاء مرير. ومرة ثانية، استسلم للأمر الواقع، وكان الساعد الأيمن في حفل الزفاف الجديد، وخطف بصره بريق السوار المرصع بالجوهر، وزكمت أنفه روائح ما حمل الزوج لعروسه من خيرات التموين، وفي المقصف العامر أوغل "شندويل "في الأكل، حتى أتخم.

وطوى الزمن أياما وأياما..

وعادت الحياة إلى مجراها في الدار والحقل، وإن نقص من عدد الأسرة اثنتان، ولم يبق من البنات إلا واحدة.. أتفلت هي الأخرى من بين يديه؟... لن يكون ذلك بحال.. وأحس بحبه القديم للأختين السالفتين يتجمع ويتجدد في الثالثة على نحو مثير، فأقسم أن تكون من نصيبه.. لينتزعها انتزاعا من أم فكرية." وتقدم لها ثابت الجنان، وخطب الفتاة الصغرى في جرأة.. وكانت "أم فكرية "على وشك أن تطأطئ الرأس، وأن تفزع إلى عود يابس تنكت به الأرض، فصاح بها مبادرا على غير ما ألفت منه:

–لا أنا خير ولا أنا بركة.. ولا أنا أيضا ابن البيت.. أنا "شندويل" .."شندويل "وكفى!.. جئت أخطب ابنتك الثالثة، وسأعمل جهدي على إسعادها.

–ولكن.. يا "شندويل"

–ماذا يا ست "أم فكرية"؟

لقد خطب البنت رجل ولا كل الرجال يسكن دارا جديدة على "بحر شبين "فيها ثلاجة وغسالة وجهاز إذاعة.. عقبى لك يا "شندويل!"

فغص "شندويل "بريقه، وهو يجمجم:

–ومن ذلك الخاطب يا "أم فكرية"؟

–سكرتير وحدة رعاية الأسرة وتنظيم النسل.

فما كادت الجملة تصك سمعه حتى خارت قواه، فاستند إلى الحائط وهو يلتقط أنفاسه.. إنه يذكر عندما زار المدينة آخر مرة، مدينة "شبين الكوم"، إنه مر بسرادق فخم يضم جمعا غفيرا

من الناس، وسمع خطيبا جهير الصوت يرفع عقيرته، يهز بها السرادق هزا، وهو يردد أقوالا عظيمة يستجيب لها الجمهور بالتصفيق والهتاف، وحين سأل عن الخطيب أخبروه بأنه "سكرتير، وحدة رعاية الأسرة وتنظيم النسل." وتراجع "شندويل "إلى مكانه المعهود في الزريبة، وألقى نفسه على الحشية يمرغ وجهه عليها، ويشبعها بأسنانه نهشا وتمزيقا.

وتكفلت الأيام بتضميد جراح "شندويل"، فكان مع الأسرة في حفل زواج الابنة الصغرى قلبا وقالبا، وملأ بطنه بأطايب المطاعم، وشنف سمعه بألحان الموسيقى وأصوات الغناء.

وتقضت أيام.. بل أسابيع.. وخيم على جو الدار هدوء كثيف، وانتشر صمت قابض، وقل الحديث بين أم فكرية و"شندويل "حتى أصبح لا يعدو الضروري من الألفاظ، كل منهما يحيا في ملالة وسهوم، وأعد "شندويل "مرقدا لنفسه في الحقل بين شجيرات ظليلة، ويتناول طعامه وحيدا، ويمضي الليل ساهما يرعى النجوم، لقد تزوجت البنات، وكان زواجهن ناجحا أيما نجاح: "المشرف الزراعي "بمهر مائة جنيه وجنينة برتقال، ووكيل الجمعية التعاونية بسوار مرصع بالجوهر، وسكرتير وحدة رعاية الأسرة وتنظيم النسل بثلاجاته وغسالاته وأجهزته الإذاعية. شخصيات مرموقة، تتضاءل بجانبها شخصية "شندويل"، حتى لتبدو تافهة مهينة. حقا إنه فلاح مجد نشيط، يستطيع بساعده أن يأتي

بالمعجزات في حقل الزراعة الخصيب، ولكن ما قيمة تلك المعجزات أمام تلك الأسماء الضخمة والمراكز الفخمة التي يعشي ضوؤها العيون؟ .. ومن الملوم؟ "شندويل "أو الأسرة التي كفلته؟ لم يفكر هو لحظة أن يعمل لنفسه. لم يفكر هو لحظة أن يقتني شيئا.. عجلة.. أو عنزة.. أو على الأقل دجاجة واحدة.. لم يهمه جمع المال وادخاره قدر ما أهمه أداء واجبه.. كان يسعى أبدا إلى إرضاء من أحسنوا إليه، لا يتطلع إلى مزيد.. لقد اعتصر دمه في خدمة من آووه وكفلوه.. وأخيرا يستبين له فقره، وهوان شأنه.. فماذا أفاد من طيبته؟ وماذا أجدى عليه إيثاره.

أيقن "شندويل "الآن أن وجهة نظره في تقييم نفسه بين الأسرة كانت على خطأ من البدء، أو كانت مبالغة فيها.. ماذا كان مصير الأسرة لولاه هو؟ لولا ما أسداه إليها من خير، وما بذل من عون؟ كان هو قوام البيت، وراعي الحقل، وحامي حمى الأسرة.. أليس هو جديرا بأن يأخذ مكانه عاليا بينها؟

حان له أن يغضب وحق له أن ينصف نفسه، وأن له كرامة عليه أن يحافظ عليها ما وسعه أن يحافظ. ووجد نفسه ينهض من فوره، وقد ارتسم على وجهه جد وإصرار، واتخذ سبيله إلى "أم فكرية."

كان الصباح صفيا رخيا فتقدم "شندويل "من "أم فكرية"، وهي في جلسة مريحة أمام طست الغسيل، فما رأته قادما حتى لملمت أوصالها، وأسدلت ثوبها تغطي ما تعرى من جسدها، ونظرت إلى الشاب تخاطبه. خير يا "شندويل.."

–أو قولي شرا يا ست "أم فكرية."

–قال ذلك في جهامة ظاهرة، وقد تصلبت قامته، فغدت كجذع شجرة عتيقة فنحت "أم فكرية "الطست قليلا، ومسحت يديها بطرف ردائها وقالت:

–ماذا في الأمر يا "شندويل"؟

فأجابها في صوت مجلجل:

–لقد اعتزمت الرحيل.

فوضعت المرأة يدها على صدرها، وقالت في دهشة:

–أي رحيل تقصد يا "شندويل"؟

–سأرحل يا ستي.. أرض الله واسعة.. بلاد الله لخلق الله..

–كيف تفكر في أن تتركنا؟

–على الرغم مني أفعل.

فصمتت لحظات وهي تتفحصه، فراعها تجهمه وصلابة ملامحه، وما في صوته الرجولي الأجش من عزم وتصميم ..ثم قالت:

–ألم تعد الحياة تروق لك بيننا؟

–لم يعد لي أمل في العيش في هذه الدار.. رحلت عنها الصبايا ولم أظفر بواحدة منهن.

قسمة ونصيب يا "شندويل."

–وقسمتي ونصيبي أن أرحل يا ست "أم فكرية."

–أتترك الدار التي فيها نشأت وربيت؟ أتترك خالتك "أم فكرية "وحيدة بلا ساعد ولا معين؟

–على الرغم مني أفعل.. سأبرح القرية الساعة.. ألتمس عيشي في بلد آخر.. بعيد كل البعد!

–هل ساءك زواج البنات إلى هذا الحد؟

–ثلاث صبايا كالأقمار، ترفضين أن تزوجيني واحدة منهن.. والآن خلت الدار إلا مني ومنك.. لم يعد في البيت سوانا يا خالة.. أسامعة أنت قولي؟

–سامعة..

–ألسنة الناس طوال.. والكلام يتنقل على الأفواه..

–ما هذه الأفكار الغريبة يا "شندويل"؟

–هي الحقيقة التي يجب أن تقال.. لقد صرت رجلا يا خالة.. رجلا نبت له شارب محترم.. رجلا في طول النخلة وعرض الجميزة وقوة فحل الجاموس.. ألم تريني وأنا في "الزعبوط "الجديد؟ ألم تلاحظي كيف أحسن لف الشال الأبيض على رأسي فيغدو عمامة مهيبة تزري بالرءوس العارية من أصحاب المراكز الكبيرة؟

فأرسلت المرأة ضحكة لينة ناعمة، وهي تقول:

يخبلك ربنا يا "شندويل."

لم يعد في الدار مكان.. شندويل الصبي ذهب لحاله، وأخذ مكانه "شندويل "الرجل..

أنسيت يا شندويل أني في مقام أمك، وأنك في منزلة ابني؟

يفتح الله يا خالة.. هذ كلام لا يعتد به أحد.. وأنا أول من لا يصدقه.. لسنا ابنا وأما.. بل نحن رجل وامرأة.

ورماها بنظرة ثاقبة، ما كادت تلتقي بنظرتها حتى اضطرت أن تسبل جفنيها، وتحجب بخمارها شطر وجهها..

وعلاها سهوم..

اسمعي يا خالة، وتفهمي قولي.. إنني بصريح العبارة لا أستطيع أن أعايشك.. شريعة الله لا ترضى بذلك.. أنا مسلم موحد لله.. لا أقيم في الدار إلا زوجا لك..

فضربت صدرها بيدها تقول:

–يا عيب الشوم..

–لا عيب ولا شوم.. إنه الحق الصريح.. لقد أحببت بناتك الثلاثة واحدة بعد الأخرى.. لأنهن يشبهنك.. أحببتهن لأنهن صورة منك يا خالة.. ورق صوته، وهو يواصل الكلام، فكان في منطقه كأنه يغني:

نشأت وأنا أراك مثل البدر.. بناتك من نورك أخذن نورهن.. وكنت دائما بدرا منورا في سماء حياتي طفلا وصبيا ورجلا.. في كل مرحلة كنت أحس نحوك شعورا يلائم سني.. ولكن في كل مراحل حياتي كان هناك إحساس واحد هو الحب.. الحب الغامر الفياض!

وندت من "أم فكرية "شهقة وهي تردد في صوت لين المكاسر:

–الحب.. الحب..

ثم قالت هامسة:

–لقد تقدمت سني يا "شندويل .."أنا كبيرة بالنسبة لك..

–ولكنك في نظري في عمر بناتك..

وصاح بصوت كله إيمان وإخلاص:

–والله في عمر بناتك.. بل أحلى وأجمل.. اعتبريني يا خالة خادما لك.. ومريني تجديني رهن ما تشائين..

–ما عشت أنا لتكون خادمي يا "شندويل."

وغضت من بصرها وهي تواصل القول:

" –أنت راجل البيت.. سيد الدار.. وأنا خادمتك يا" شندويل.."

مضمون القصــة

تحكي القصة سيرة الفلاح الطيب "شندويل" الذي نشأ يتيما في كنف أسرة "أم فكرية" وبناتها الثلاث، فعاش بينهم كواحد منهم، يعمل بإخلاص ويضحي دون أن يفكر في نفسه. وما إن شب وكبر حتى أحب البنات واحدة بعد الأخرى، لكن كل مرة كانت "أم فكرية" تزوّج ابنتها لرجل ذي منصب ومال، فينكمش حلم "شندويل" وينكسر قلبه. وبعد أن تزوجت البنات الثلاث وخلت الدار إلا منه ومن ربتِه، شعر بظلمه لنفسه وفقر حاله رغم ما بذله من عطاء، فواجه "أم فكرية" بعزمه على الرحيل. وفي لحظة صدق، انطلق يعترف لها بأن حبه الحقيقي كان لها هي، وأنه لا يستطيع البقاء في الدار إلا زوجًا لها لا ابنا، فتتردد المرأة بين الدهشة والحياء، وينتهي المشهد على اعتراف متبادل بالمكانة الجديدة التي أصبح "شندويل" يحتلها في حياتها.

الحكمة من القصة

تسلط القصة الضوء على أهمية الاعتراف بالجهد والحق في المكافأة، وتبرز كيف أن الإيثار والتفاني في خدمة الآخرين لا يعني التنازل عن الكرامة الشخصية أو الطموح في الحياة، كما تحمل رسالة عن صدق المشاعر والقوة في مواجهة الظلم الواقع علينا، وعن أن الحب الحقيقي لا يعرف حدود الأعمار أو المناصب، بل ينبع من الصدق والإخلاص والوفاء.

تطبيق

التعليمة 1: تكليف الطلبة بكتابة قصص قصيرة، وسماع بعضها في الحصة ، يستفيد فيها الطالب من الآخرين، لاستكشاف مواطن القوة والضعف لديه، واكتشاف ميوله الخاص.

التعليمة2: بحيث يُكلّف كل طالب باختيار عنوان من القائمة، وكتابة قصة قصيرة ، ثم يقدّمها شفهيا أمام زملائه مع التركيز على:

- ✓ وضوح الفكرة
- ✓ سلامة اللغة
- ✓ التعبير الوجداني
- ✓ التسلسل السردي (بداية – حدث – نهاية)
- ✓ قوة الوصف
- ✓ خاتمـــة

العناوين المقترحـــــــة

1) **هدية غير متوقعة.**
2) **أوّل يوم يعود فيه الفرح إلى البيت**
3) **رحلة إلى مكان جميل**
4) **ابتسامة طفل غيّرت كل شيء.**
5) **المفاجأة التي صنعتها الصداقة**
6) **حين فاز حلمي الصغير.**
7) **أسعد يوم في حياتي.**
8) **دمعة لا يراها أحد.**
9) **ألـــم الفراق.**
10) **رحيل دون وداع**

الهوامش

1. ينظر: عزيزة مريدن، القصة والرواية، دط، دار الفكر، دمشق ،1980، ص: 12.
2. ينظر: حسين علي محمد حسين، التحرير الأدبي، ط5، مكتبة العبيكان، د ب ن، 2004، ص: 290.
3. ينظر: المرجع السابق، ص: 12.
4. ينظر: المرجع نفسه، ص: 13.
5. ينظر المرجع نفسه، ص: 13.
6. ينظر، المرجع نفسه، ص: 14.
7. ينظر: حسين علي محمد حسين، التحرير الأدبي، ص: 291.
8. ينظر: محمد تيمور، نشأة القصة وتطورها، دط، دار الكتب العلمية ، بيروت، د س ن، ص: 18.
9. ينظر: حسين علي محمد حسين، التحرير الأدبي، ص: 291/ 295.
10. ينظر: محمود تيمور: شندويل يبحث عن عروس، مجلة "العربي"، العدد 127، 1969 وينظر: شرحا ومناقشة تفصيلية لهذه القصة في كتاب: كتب وقضايا في الأدب الإسلامي، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة، الإسكندرية 1999م، ص99/ 112.